مالك بن نبي وقيم التحديث الآسيوية

د. مسعود ضاهر

(مؤرخ وأستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية)

ليس من شك في أن مالكاً بن نبي لم يسع إلى تقديم دراسات علمية موثقة عن اليابان، أو التعريف بتفاصيل نهضتها، إلا أنه كان على قناعة تامة بأن تجربة اليابان تقدم أنموذجاً يحتذى للعرب والمسلمين

مالك بن نبي مفكر عربي إسلامي بارز. ولد في قسنطينة في الجزائر العام 1905، ودرس الهندسة الكهربائية في باريس. لجأ إلى القاهرة العام 1956، ثم عاد إلى الجزائر المستقلة ليتولى فيها منصب مدير عام التعليم العالي. لكنه ما لبث أن استقال من منصبه العام 1967، وتحول إلى داعية إسلامية متنور بذل جهوداً كبيرة في توعية العرب والمسلمين من خلال إلقاء المحاضرات في كثير من الدول العربية والإسلامية وغيرها.

امتلك ثقافة موسوعية، ونشر معظم دراساته بالفرنسية أولاً، ثم نقلت إلى العربية. تمحورت كتبه ومحاضراته حول قضايا الفكر والنهضة والتربية وتحرر الشعوب المستعمرة، والمشكلات الاستراتيجية التي تطول مستقبل العالم الإسلامي. وشدد في دراساته النقدية المعمقة على إشكاليات الحضارة الإسلامية ومدى تفاعلها مع الحضارات الأخرى، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ونبه إلى ضرورة الاستفادة من تجارب التحديث الآسيوية التي قدمت نماذج إيجابية حول كيفية التحديث السليم من دون السقوط في دائرة التبعية والتغريب. حملت أبحاثه الفكرية، وندواته التثقيفية رؤية شمولية واسعة لدور الفكر في بناء مؤسسات عصرية تتلاءم مع ثقافة العصر، وتعيد للعرب وللمسلمين دوراً فاعلاً في تاريخهم المعاصر.

كان مالك بن نبي من أوائل المفكرين العرب الذين أولوا اهتماماً خاصاً بثقافة عصر العولمة، انطلاقاً من رؤية ثاقبة لسيرورة التاريخ العالمي، أو التاريخ المعولم منذ بداية عصر النهضة الأوروبية وانتشار أفكار «عصر الأنوار» على المستوى الكوني، لتصبح تراثاً إنسانياً شمولياً.

فعلى الرغم من المركزية الأوروبية الواضحة لنشأة تلك الأفكار كالحرية والمساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والليبرالية ومن بعدها الرأسمالية والاشتراكية والثورات الصناعية ومفاهيم الحداثة وما بعد الحداثة، فإن تلك المقولات اكتسبت صفة العالمية.

لذلك يمكن تلمس وجودها في كثير من المجتمعات البشرية في القرن التاسع عشر، وبشكل واضح في مجتمعات القرن العشرين. وهي في صلب مقولات الثقافة الكونية لعصر العولمة على رغم التبدلات السياسية والاقتصادية المتسارعة التي يشهدها العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين.

بقي أن نشير إلى أن مالك بن نبي أطلق مقولات ثقافية تنسب إليه بشكل واضح، لأنه أول من استخدمها وأعطاها مضامين ثقافية، بأبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية. ولعل أبرزها مقولته المعروفة عالمياً حول «القابلية للاستعمار». فالاستعمار لا يبقى مجرد عامل خارجي، بل يدخل في السلوك النفسي للإنسان الخاضع له، بحيث يتحول إلى ذات طيعة تقبل أفكاره وتمكنه من البقاء طويلاً بعد تحرير الأرض من القوات العسكرية الأجنبية. وعبثاً يحاول عرب اليوم إلقاء اللوم الدائم على الخارج الاستعماري، طالما أن البنى الثقافية والسياسية والإدارية والتربوية التي بنيت إبان مرحلة الاستعمار لا تزال مستمرة بعد رحيله. وهي ما زالت تسمح للمقولات الاستعمارية بأن تبقى فاعلة في المؤسسات العربية والإسلامية بعد أكثر من نصف قرن على رحيل غالبية الجيوش الأجنبية عن بلاد العرب والمسلمين. مع ذلك، بقي كثير من أنظمتهم السياسية يدين بتبعية شبه تامة لسياسات دول خارجية.

مالك بن نبي وقيم التحديث الآسيوية

■ كان مالك بن نبي من أوائل المفكرين العرب الذين أولوا اهتماماً خاصاً بثقافة عصر العولمة، انطلاقاً من رؤية ثاقبة لسيرورة التاريخ العالمي، أو التاريخ المعولم، منذ بداية عصر النهضة الأوروبية وانتشار أفكار «عصر الأنوار» على المستوى الكوني لتصبح تراثاً إنسانياً شمولياً

فالقابلية للاستعمار هي السلاح النفسي الأكثر خطورة لتكريس التبعية الثقافية والاقتصادية والسياسية والإدارية للخارج الاستعماري. وبنتيجتها رحلت جيوش الاستعمار لتحل مكانها جيوش الخبراء والتقنيين والمستشارين وتقاليد اللباس والطعام والسلوك الاجتماعي وغيرها. وما زال غالبية العرب والمسلمين محكومين بعقدة الدونية تجاه من استعمرهم طويلاً، وذلك انطلاقاً من مقولة ابن خلدون الشهيرة «تشبه المغلوب بالغالب»، في مختلف المجالات. وفي هذا السلوك الدوني تكمن أهمية مقولة مالك بن نبي حول «القابلية للاستعمار»، باعتبارها من أكثر المقولات العلمية قدرة على تفسير سلوكيات الكثير من القادة والسياسيين والمثقفين وأصحاب القرار لدى العرب والمسلمين.

على جانب آخر، وبعدما هاجم بعنف ذهنية «القابلية للاستعمار» لدى الشعوب المقهورة، فند مزاعم دعاة المركزية الثقافية الأوروبية لاعتبارهم إياها المقياس الذي يحدد به تقدم أو تخلف الثقافات والمجتمعات الأخرى. فاعتبرها مالك بن نبي نظرة استعمارية تجعل الثقافات غير الأوروبية في موقع التابع لثقافة المركزية الأوربية. أي أن أوروبا كانت وما زالت منطلق الحداثة، وأنموذجها الأرقى الذي تقاس به كل أشكال الحداثة في التاريخ المعولم. وهذا يفسر، إلى حد بعيد، نظرته الإيجابية للنهضة اليابانية التي أنتجت حداثة سليمة خارج المركزية الأوروبية.

كومنولث إسلامي

وصف مالك بن نبي بحق أنه مجدد متميز في الثقافة العربية الإسلامية. وهو من أبرز المثقفين العرب والمسلمين في القرن العشرين، الذين دعوا إلى الانفتاح التام على ثقافات عصر العولمة من دون خوف، وذلك انطلاقاً من الحفاظ على الجوانب الإيجابية في التراث العربي الإسلامي. وبعدما درس بعمق مقولات ابن خلدون في إطارها التاريخي، استنبط مقولات جديدة متممة لها، وتصلح لدراسة المجتمعات العربية في عصر العولمة. ولم يدخر جهداً لاستنباط حلول عملية لاستنهاض العرب والمسلمين عبر قيام نوع من الكومنولث الإسلامي الذي يحصن وحدتهم الدينية وثقافتهم الإسلامية بعد تخليصها من نظرة سلفية تقدس التراث، وترفض تحويله إلى موضوع ثقافي يتم الاستفادة منه وتطويره بعد استيعابه ونقده. ورأى أن الأمة الإسلامية في نهضتها المرجوة بحاجة ماسة إلى علوم عصرية، وتكنولوجيا متطورة يتم استيرادها ثم توطينها والإبداع فيها. وذلك يتطلب مثقفين امتلكوا ثقافة عصرية من دون أن يتنكروا لتراثهم الحضاري، ومن دون أن يقيموا تعارضاً مفتعلاً بين التراث والمعاصرة. فالثقافة العربية والإسلامية ليست مجرد تراث من الماضي الذهبي، بل أيضاً ثقافة عصرية، ينتجها مثقفون عرب ومسلمون تملكوا شروط الإبداع الثقافي من مصادره الكونية، ويشاركون في إنتاج ثقافة شمولية حضارية بأبعاد إنسانية ومستقبلية.

توفي مالك بن نبي العام 1973 تاركاً وراءه الكثير من الأعمال المنشورة بالفرنسية، وبالعربية أو المعربة. وقد جمعت أعماله في 17 كتاباً، أعيد طبع بعضها مراراً. أبرز أعماله:

«تأملات»، «شروط النهضة»، «الصراع الفكري في البلدان المستعمرة»، «الفكرة الإفريقية الآسيوية»، «فكرة كومنولث إسلامي»، «في مهب المعركة»، «القضايا

الكبرى»، «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، «مشكلة الثقافة»، «من أجل التغيير»، «ميلاد مجتمع»، «وجهة العالم الإسلامي». وقد صدرت جميعها مؤخراً عن «دار الفكر المعاصر» في بيروت، بالاشتراك مع دار الفكر في دمشق.

ولعل أبرزها في مجال فهمه لحركة التحديث اليابانية: «شروط النهضة»، الطبعة الأخيرة للعام 2000 (الطبعة الأولى1960)، و«تأملات»، الطبعة الأخيرة للعام 2002 (الطبعة الأولى 1979)، و«القضايا الكبرى»، الطبعة الأخيرة 2002 (الطبعة الأولى 1991). وقبيل وفاته صدر له كتاب بعنوان «مذكرات شاهد للقرن» (الطبعة الأولى 1970, والأخيرة 2004).

وقد حمل القسم الأول عنوان: الطفل 1905 - 1930, والقسم الثاني عنوان: الطالب 1930 -1939.

بن نبي ومقولات الاستنهاض الآسيوي

من خلال «مذكرات شاهد للقرن»، يظهر بوضوح أثر نهضة شعوب الشرق، ومنها اليابان، في تكوين مالك بن نبي السياسي ومقولاته الثقافية التي تجلت لاحقاً في خطبه السياسية وأفكاره الإصلاحية. فقد تأثر، منذ فترة العشرينيات من القرن العشرين بالشرق القريب، أي المشرق العربي وتركيا الكمالية، وبالشرق البعيد، أي الهند واليابان والصين وروسيا وغيرها. يقول في ذلك: «بدأ الشرق، القديم منه والحديث، يستهويني بأمجاده ومآسيه». وأضاف: «في ذلك العصر، كان أبناء جيلي يبحثون دون أن يدركوا عن الهروب أو التحرر. وقد فتح لي طاغور باب ذلك الهروب، فلم تعد أفكاري تسرح نحو تمبوكتو، وبدأت الرياح أيضاً تسوقها إلى الهند الغامضة. كانت تشدني إليها على الرغم من أني لا أعرف عنها شيئاً، غير أنها مستعمرة إنكليزية» (مالك بن نبي، «مذكرات شاهد للقرن»، بيروت 2004).

ثم تحدث على أثر أفكار لينين وماوتسي تونغ وانتصار الأمير عبد الكريم الخطابي في مليلة في المغرب، في الأجيال العربية والإسلامية الشابة إبان مرحلة ما بين الحربين العالميتين. «زعزعت حرب الريف مواقف حديدية في فرساي 1919. فقد أثبت الأمير عبد الكريم الخطابي أن إمبراطورية استعمارية يمكن النيل منها. لذا كان لا بد من رأب الصدع المعنوي الذي أحدثه أمير الريف مع حفنة من الرجال في هيبة الأمم الاستعمارية» (المرجع نفسه).

وبفعل تلك الانتصارات، بدأت مجتمعات جديدة تولد في مختلف أرجاء العالم متحدية الاستعمار القديم ودوله الإمبريالية. ثم جاءت الأزمة العامة للرأسمالية العام 1929 لتكشف عمق المأزق الذي يعيشه العالم في ظل السيطرة الاستعمارية التقليدية من جهة، والدعوة إلى الاتفاقيات المجحفة التي تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى. فقد تنكرت تلك الدول لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها وفرضت عليها أنظمة الانتداب والحماية بموجب قرارات مؤتمر فرساي للدول المنتصرة.

قبيل الحرب العالمية الثانية، بدأ الشرق الآسيوي، خصوصاً الصين واليابان والهند، يحتل مركزاً متقدماً في وسائل الإعلام العالمية، ومن مواقع متناقضة. لكن معرفة مالك بن نبي العلمية بتلك الدول كانت سطحية للغاية، وتشوبها أفكار رومانسية حول حركة الاستنهاض في الدول الآسيوية. وقد انتقد بنفسه تصوره الطوباوي في تلك الحقبة بقوله: «(في باريس)، ربطتني بشاب صيني صداقة خاصة، بينما كنا من الوجهة السياسية على تناقض كبير، لأنني كنت موالياً لليابان أرى فيها المنقذ الوحيد للشعوب الشرقية. حتى أنني لو طلبت اليابان الاستيلاء على الجزائر، لرخصت لها بذلك من أجل القضاء على الاستعمار الغربي، بينما كان صديقي يواجه الاستعمار الياباني بالذات ... اليوم أرى بصورة أوضح جوهر اختلافي مع صديقي الصيني. إذ كان يطرح قضية البلاد المستعمرة بتعبير السياسة، وكنت أطرحها من الوجهة الحضارية» (المرجع نفسه).

وعندما انتشر نبأ اكتشاف مؤامرة أجنبية ضد الملك عبد العزيز بن سعود في آذار / مارس 1934، تحرك مالك بن نبي بحماسة، فوجه رسالة شخصية إلى إمبراطور اليابان يطالبه فيها بتقديم دعم عسكري عاجل للعاهل السعودي. «أخذت ورقة وبدأت أحرر خطاباً مثيراً إلى سفير اليابان بباريس، أتوسل لحكومته أن تساند، باسم التضامن الآسيوي المقدس أمام الدول الاستعمارية، ابن سعود في المعركة وتؤيده...وبطبيعة الحال لم يرسل جلالة (الميكادو) أسطوله لجدة لإنقاذ الموقف، بالإضافة إلى أن هذا الأسطول كان تلك الأيام مشغولاً في حصار موانىء الصين» (المرجع نفسه).

بعبارة موجزة، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية لم تكن صورة اليابان الإمبريالية مألوفة لدى غالبية المثقفين العرب والمسلمين. فقد استمر انبهارهم باليابان انطلاقاً من قصيدة حافظ إبراهيم التي مجدت انتصار اليابان على روسيا، توهم بعضهم إحلال سيطرتها مكان السيطرة الأوروبية.

لم يكن مالك بن نبي يدرك آنذاك أن سلوكه هذا يعبر عن مقولة «الاستعمار

مالك بن نبي وقيم التحديث الآسيوية

■ أطلق بن نبي مقولات ثقافية تُنسب إليه بشكل واضح، لأنه أول من استخدمها وأعطاها مضامين ثقافية بأبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية، ولعل أبرزها مقولته المعروفة عالمياً حول «القابلية للاستعمار»، فالاستعمار لا يبقى مجرد عامل خارجي، بل يدخل في السلوك النفساني للإنسان الخاضع له

المعكوس»، أي الاستعمار الزاحف من الشرق بدل الغرب. لكن ردود الفعل التي وصلته من أصدقائه المقربين لفتت انتباهه إلى مخاطر الدعوة إلى «الاستعمار الشرقي». فكتب في مذكراته ما يلي: «بينما كان الرأي العام في العالم متعلقاً بأحداث الشرق الأقصى، حيث تواصل اليابان حربها التوسعية ضد الصين (منذ العام 1937)، وكانت يومئذ تشرع في هجومها الكبير على ميناء شنغهاي، ليحطم طيرانها أكواخ الأحياء الشعبية الصينية، وقصور مناطق النفوذ الأوروبي، كنت أتتبع العمليات العسكرية على خريطة، وأجدها بطيئة مثلما كان بعض الفرنسيين منذ سنتين يستبطئون تقدم الجيش الإيطالي بأرض الحبشة. غير أن مسوغاتي كانت تختلف عن مسوغاتهم. كنت أرى ضرورة تكوين دولة آسيوية قوية لتقف في وجه الاستعمار، وكنت مؤمناً بإخلاص اليابان نحو آسيا. وكان هذا يذكرني بمذاكراتي مع صديقي الطالب الصيني بباريس الذي لم يكن، بدافع وطنيته، مقتنعاً برأيي في كيفية تحرير بلاده على يد اليابان. الأمر الذي ربما زاد في تحفظي في تلك الفترة إزاء كل الحركات الوطنية، فأصبحت أرى في كل وطنية منحصرة في قضية وطن خيانة لقضية أكبر. ولم يكن فيما أعتقد، أحد على مذهبي هذا سوى صديقي علي بن أحمد» (المرجع نفسه).

في هذا المجال، لا بد من الإشارة إلى أن مالك بن نبي أفرد كتباً ودراسات عدة لمناقشة مقولات الاستنهاض الآسيوي. يكفي التذكير هنا بكتابيه: «فكرة كمنويلث إسلامي»، و«فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ». وتحدث بالتفصيل عن المبررات الجغرافية، والسياسية، والسيكولوجية، وغيرها لتوحيد العالم الإسلامي على أساس من التفاعل الثقافي بين الحضارات الآسيوية والإفريقية واعتبار الحضارة الإسلامية جزءاً لا يتجزأ منها. وعلى رغم اقتباس النموذج البريطاني لجمع تلك الدول في كمنويلث إسلامي، فإن المضمون الثقافي له كان مستوحى، بصورة واضحة، من النظرة الإيجابية جداً التي كان يكنها للنهضة اليابانية. فنجاح اليابان في تحديث الدولة والمجتمع، بالإضافة إلى بناء مؤسسات عصرية فاعلة عبر بيروقراطية قوية وتعمل لمصلحة اليابان العليا، قادها إلى إطلاق حداثة سليمة غير قابة للارتداد. وهي حداثة من خارج المركزية الأوروبية، لكنها استفادت كثيراً من مقولاتها الإيجابية وعلومها العصرية. فأظهر إعجابه الشديد بتلك النهضة التي لم تقم تعارضاً بين التراث والحداثة أو المعاصرة. وكان يرى أن من واجب العرب والمسلمين دراسة تلك النهضة بعمق واستخلاص الدروس المفيدة منها.

لقد تبدلت الاندفاعة العاطفية لمالك بن نبي الشاب وحلت مكانها صورة واقعية لليابان بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية وسقوطها تحت الاحتلال الأميركي. فارتدت مقولاته الجديدة طابع النقد والتدقيق والمقارنة الموضوعية، من دون أن تغيب بشكل كامل بعض ملامح الصورة الزاهية عن النهضة اليابانية، فاتسمت دراساته بعد الحرب العالمية الثانية بنظرة أكثر دقة وموضوعية تجاه اليابان بعدما زال عامل الانبهار الذي طبع نظرته إليها في مرحلة الشباب. وقدم كتابه «فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ» نموذجاً واضحاً على ذلك التحول.

فقد تجاوز النهضة اليابانية إلى طرح «مشكلة الرجل الأفرو آسيوي» بشكل عام. وعالج «بناء الفكرة الأفروآسيوية»،

وكيفية تحليل حضاراتها، والتركيز على خصوصيات الثقافات الأفروآسيوية، وضرورة قيام اقتصاد أفروآسيوي فعال. وحلل مضمون تلك الفكرة من حيث هي رسالة تعايش في الدرجة الأولى بين شعوب وحضارات متقاربة في الجغرافية، وتعرضت لأشكال متقاربة من الاضهاد المشترك. وعالج بالتفصيل ثلاث نقاط مركزية: فكرة الآسيوية والعالمية، والعالم الإسلامي والفكرة الأفروآسيوية، وأوروبا والفكرة الأفروآسيوية. ولا تتسع هذه المقالة لتقديم مقولاته عن مشكلات آسيا وإفريقيا، لأنها تحتاج لدراسات مطولة. فتناولت موقفه من النهضة اليابانية فقط.

بن نبي ومقولات النهضة اليابانية

في محاضرة له بعنوان «كيف نبني مجتمعاً أفضل؟»، ألقاها في نادي جمعية المكارم الأخلاقية في طرابلس، لبنان بتاريخ الأول من تموز / يوليو 1959، أشار مالك بن نبي إلى أهمية تجنيد الطاقات الاجتماعية، وحل مشكلة البطالة، وحل مشكلة الأمية وغيرها كشروط ضرورية لتحقيق سعادة الفرد. فكتب ما يلي: «متوسط الدخل الفردي في اليابان 200 دولار، وبه يتحقق للفرد الياباني جميع الضمانات. أعني 200 دولار تحل جميع مشكلات المجتمع الياباني، فإنه لا أمية فيه، ولا مرض وبائياً، ولا فقر بصفة وبائية. فالحياة الاجتماعية منظمة تحقق للإنسان ما نسميه السعادة بالمنطق المادي. وهذا يعني أننا دون ذلك سنسقط في الحضيض، في مستوى الشقاء» (مالك بن نبي، «تأملات»).

وفي محاضرة بعنوان: «خواطر عن نهضتنا العربية»، ألقاها على مدرج جامعة دمشق بتاريخ 26 تموز / يوليو 1959, أشار مالك بن نبي إلى النهضة اليابانية الأولى بكثير من الإعجاب. وجاء فيها: «تطابق في تاريخ القرن التاسع عشر ما يسمى في اليابان بعهد المايجي من بدايته. أي عندما طرق الكومندور بيري قائد الأسطول الأميركي إذ ذاك أبواب اليابان سنة 1868، فاضطرت لفتحها صاغرة حتى نهاية الحرب ضد روسيا القيصرية، وانتصار تلك الدولة الآسيوية الناشئة على هذه الدولة الاستعمارية الكبرى سنة 1905، انتصاراً بهر بعض الشعوب المستعمرة التي بدأت تنظر إلى اليابان كالبطل الآخذ بثأرها. إنه لا يهمنا

عندما انتشر نبأ اكتشاف مؤامرة أجنبية ضد الملك عبد العزيز بن سعود في مارس / آذار 1934، تحرك مالك بن نبي بحماسة، فوجه رسالة شخصية إلى إمبراطور اليابان يطالبه فيها بتقديم دعم عسكري عاجل للعاهل السعودي

الحدث نفسه وإنما تهمنا دلالته على أن النهضة التي يسمونها العهد المايجي في اليابان قد حققت فيه ما لم تحققه في البلاد الإسلامية عامة وفي البلاد العربية خاصة. إننا نجد أنفسنا أمام حقيقة يشهد بها التاريخ، وليس في وسعنا إلا الاعتراف بأن النهضة كان نشرها أعمق في اليابان منه في البلاد العربية في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر). وهذا يعني دون ريب أن سير بلاد الشمس المشرقة خلال الحقبة التي اخترتها للمقارنة (1868 – 1905)، كان سيراً يتواءم مع ضرورات الداخل والخارج، أكثر من السير في البلاد العربية. وهذا يعني في التحليل أن المعادلة الشخصية اليابانية، كانت أرجح في كفة التاريخ من المعادلة الشخصية التي كونتها النهضة في البلاد العربية. وهذا يجعلنا نتساءل: لماذا رجحت كفة اليابان في أواخر القرن التاسع عشر إلى هذا الحد؟» (المرجع نفسه).

ثم ناقش مقولة مهمة موجزها أن القرن التاسع عشر هو قرن الاستعمار المباشر على المستوى العالمي. ورأى أن النهضة كانت ظاهرة عامة في مختلف البلاد المستعمرة. لكن المسألة المنهجية في هذا المجال هي: إذا كانت النهضة هي الفعل الذي ردت به الشعوب المستعمرة في تلك الظروف، فلماذا اختلفت النتيجة طالما أن الأسباب التاريخية كانت واحدة؟ لذا لا بد من تجاوز مقولة رد فعل الشعوب المستعمرة ضد الاستعمار إلى ربط النهضة برد فعل الشعب الناهض بالحضارة الغربية التي هي علة الاستعمار.

تجدر الإشارة إلى أن مالك بن نبي رسم مسار النهضة اليابانية بصورة ثقافية تثير الإعجاب،

لكنها لا تستند إلى أي نوع من الدراسات العلمية الموثقة: «أما النهضة في اليابان خلال الحقبة التي اخترناها للموازنة، فإنها عبرت عن صلة بالحضارة الغربية من نوع آخر. فإننا لو أخذنا صورة شمسية للجمتع الياباني كما فعلنا للمجتمع العربي بين سنوات 1868 – 5091, فسوف نجد فيها من أشياء حضارة الغرب ما نجده قطعاً في صورة شمسية نلتقطها في الوقت نفسه لمجتمعنا نحن. ولكننا لو حللنا الصورتين بالمجهر الدقيق، لوجدنا الصورة الشمسية الخاصة بالنهضة

مالك بن نبي وقيم التحديث الآسيوية

■ بعدما هاجم بعنف ذهنية «القابلية للاستعمار» لدى الشعوب المقهورة، فنّد مالك بن نبي مزاعم دعاة المركزية الثقافية الأوروبية، لاعتبارهم إياها المقياس الذي يحدد به تقدم أو تخلف الثقافات والمجتمعات الأخرى، فاعتبرها نظرة استعمارية تجعل الثقافات غير الأوروبية في موقع التابع لثقافة المركزية الأوروبية

العربية زاخرة بالأشياء الغربية الحديثة، ولا نجد معها سوى أشياء أخرى من مخلفات حضارتنا التي ولت إلى ظلمات التاريخ» (المرجع نفسه).

وأضاف: «أما لو حللنا الصورة الشمسية الخاصة بنهضة اليابان، فإننا نجد فيها أيضاً مع الأشياء الغربية الحديثة أشياء عتيقة من مخلفات حضارة (الميكادو والساموراي). وإننا لسوف نجد فيها إلى جانب عالم زاخر بالأشياء، عالماً آخر زاخراً بالأفكار الجديدة: الأفكار التي نبعت من عبقرية اليابان لما اصطدمت بواقع القرن التاسع عشر. وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل، لأنها تكشف لنا عن الفارق العظيم بين الصلة التي ربطتها اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها. إن اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا منها موقف الزبون. إنها تستورد منها الأفكار خاصة ونحن نستورد منها الأشياء خاصة. إنها كانت خلال سنوات 1868 - 5091 تنشىء حضارة، وكنا نشتري بضاعة حضارة، فكان البون بيننا شاسعاً والخلاف جوهرياً، يؤدي حتماً إلى ترجيح كفة اليابان كما بينا في الموازنة التي عقدناها لسنة 1905» (المرجع نفسه).

ثم عالج مالك بن نبي موضوع النهضة اليابانية في محاضرة له بعنوان: «مشكلة الحضارة»، ألقاها باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة، بتاريخ 9 كانون الثاني / يناير1964، وصدرت ضمن أعماله الكاملة المنشورة بالعربية. وقد ذكّر فيها بمقولته الشهيرة حول «القابلية للاستعمار» التي أفرد لها صفحات عدة في كتابه «شروط النهضة» (مالك بن نبي، «القضايا الكبرى»). ورأى: «أن الواقع الماثل في امتداد نهضة العالم الإسلامي عبر قرن كامل من الزمان دون أن تتوصل حتى الآن إلى النتيجة التي بلغتها مجتمعات أخرى انطلقت من نفس النقطة، لا يعزى لفقدان الوسائل، وإنما يرجع إلى فقدان الأفكار» (المرجع نفسه). وبعد أن استعاد مسيرة «النهضة اليابانية التي لم تبدأ في الواقع إلا عقب سنة 1868 مع عهد الحكومة المستنيرة الذي يسمى فيها بعهد المايجي»، رسم النتائج المهمة التي تولدت عليها على الشكل التالي: «قبل نهاية القرن الأخير (التاسع عشر) كانت اليابان قد دخلت أسرة القوى الكبرى. ولقد أمكن التحقق من ذلك، ولاسيما منذ الحرب الروسية - اليابانية الشهيرة التي بلغ منها أن سربت نفحة ملحمية للشعر العربي في ذلك الأوان، كما تذكرنا بذلك قصيدة لحافظ إبراهيم ...» (المرجع نفسه).

وعقب بقوله: «لكم نظمنا قصائد جميلة حول نهضتنا في الوقت الذي كانت فيه اليابان تتوج نهضتها بانتصار أراق ما لا يستهان به من المداد في أوروبا، حيث كان غليوم الثاني، إمبراطور ألمانيا، يتحدث عن «الخطر الأصفر»، وعن «الرجل المريض». وكان «الإنسان المريض» في ذلك العصر يعني العالم الإسلامي بالذات» (المرجع نفسه).

بقي أن نشير إلى أن مالك بن نبي قد رسم ملامح المجتمع الياباني الجديد الذي بنته النهضة

في مختلف المجالات بقوله: «انتقلت اليابان من عهد القرون الوسطى إلى العصر الحديث في مرحلة استغرقت خمسين حولاً تقريباً. وأنشأت جميع الشروط التي تجعل منها اليوم مجتمعاً منتمياً «للأنموذج النامي». فقد توصلت اليابان إلى الإنقاص من جميع مشكلات التخلف بفضل تنظيم معين على قواعد أخلاقية، يجعله يبلغ مستوى القدرة على مواجهة جميع

أعبائه بواسطة وسائل تعد منقوصة على وجه الإجمال إذا قارناها ترقيمياً بالوسائل التي تقع في حوزة بلدان أخرى نامية» (المرجع نفسه).

جمود قاتل

بعد هذه المقارنة الدقيقة بين التركيز على بناء مجتمع الأشياء أو مجتمع الاستهلاك باللغة الراهنة، والمجتمع الحضاري، توصل مالك بن نبي إلى استخلاص دروس وعبر مهمة من المقارنة التي أجراها بين نهضة رسمت مستقبلاً مشرقاً لليابان، ومقولات عربية في التحديث مفرغة من مضامينها الحضارية أدت إلى التبعية للغرب، وإلى جمود قاتل ما زال يشل قدرة العالم الإسلامي على التجدد والنهوض. «هذان المظهران للقضية هما اللذان يقدمان لنا الدرس المفيد، كما أنهما مظهران مترابطان. فنحن نرى ضمن حالة ملموسة، وبصورة تلقائية، أن مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار، وأن المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها. ونحن هنا، ندرك ضمن حد معين، الصلة القائمة بين إرادة وقدرة مجتمع يبني ذاته على قاعدة حضارة، وليس على قاعدة منتجاتها. وهذا يفسر لنا كيف أن اليابان قد نجحت حيث لم يحقق العالم الإسلامي، حتى هذا الحين، نصراً حاسماً على التخلف. لأن نشاطه قد طبق في عالم الأشياء والمنتجات، بدل أن يطبق ضمن النسق البشري ونسق الأفكار» (المرجع نفسه).

وركز مالك بن نبي في تحليله لأسباب النهضة اليابانية على أهمية العامل التاريخي في فهم أواليات التطور عند رسم صورة علمية دقيقة عن حركة التحديث لدى مختلف الشعوب. فقد استطاعت اليابان أن تبني نهضتها الناجحة بعدما تجنبت السقوط تحت الاحتلال الأجنبي. وما كان لها أن تحقق ذلك النجاح لولا تضافر الجهود المشتركة بين قيادتها السياسية المتنورة ونخبها الثقافية الواعية، وصلابة قوى الإنتاج في داخلها. وقد تجاوب الرأي العام الياباني مع تلك الجهود بعدما لمس من القيادة موقفاً صارماً لصد خطر الغزو الأجنبي لبلاده.

■ ■ ■

يعتبر مالك بن نبي من أبرز المثقفين العرب والمسلمين في القرن العشرين الذي دعوا إلى الانفتاح التام على ثقافات عصر العولمة من دون خوف، وذلك انطلاقاً من الحفاظ على الجوانب الإيجابية في التراث العربي الإسلامي

■ ■ ■

في المقابل، كانت الشعوب العربية تتعرض لأشد أنواع القمع والاستغلال من الخارج والداخل معاً. فالأنظمة السياسية مستبدة، ومتواطئة مع قوى السيطرة الخارجية ضد مصالح شعوبها.

وعلى الرغم من المقاومة الباسلة التي شهدها كثير من الدول العربية والإسلامية ضد السيطرة الأجنبية، وآلاف القتلى والجرحى والمشوهين في معارك التحرر والاستقلال، فإن آثار ذلك التواطؤ بين الحكام العرب وقوى الاستعمار الخارجي، ما زالت بارزة للعيان. لذا تركز الغالبية الساحقة من الدراسات العربية على أهمية التواطؤ بين العامل الخارجي مع بعض القوى المحلية لتقسيم الشعوب العربية ومنع توحدها. وهناك عشرات الكتب التي تحلل تاريخ الشعوب العربية والإسلامية على أساس نظرية «المؤامرة» المدبرة من الخارج، وأن القوى الخارجية هي التي لعبت الدور الأساسي في تجزئة الشعوب العربية، وهي التي رسمت حدود دولها، وتركت بؤراً للنزاع في ما بينها. لذلك أفرد أهمية خاصة لدراسة طبيعة العلاقة بين «الاستعمار والشعوب المستعمرة». فكتب ما يلي: «لا شك أن بحثنا سوف يكون معرضاً لانتقاد محق، إذا نحن تغافلنا عن تأثير العامل الاستعماري واتصاله بنهضة البلاد العربية والإسلامية اتصالاً وثيقاً» (مالك بن نبي، «شروط النهضة»).

ونبه إلى أن العامل الاستعماري ما زال موجوداً في الذات العربية بأشكال متعددة. فالإنسان العربي «يعيش كأن يداً خفية وتارة مرئية، تشتت معالم طريقه، وتقصي باستمرار أمامه العلامة التي تحدد هدفه، فلا يدركه أبداً» (المرجع نفسه). ويضيف: «نعم لقد خلع الاستعمار بابنا، وزعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة ...لقد أخذ من حريتنا وسيادتنا وكرامتنا وكتبنا المنسية، وجواهر عروشنا وأرائكها الناعمة التي كنا نود لو بقينا عليها نائمين» (المرجع نفسه).

لكنه رأى في المقابل أن العامل الاستعماري يخدع الضعفاء فقط، لأنه يشل قدرتهم على مواجهته. وهو يشكل نوعاً من السوط الذي يوقظ الأمة الحية على غرار ما فعلت اليابان. فقد هبت، قيادة وشعباً وقوى فاعلة، لمواجهة الاستعمار الخارجي ومنعته من التحكم بمصيرها. فلماذا لم ينجح العرب في تحرير نفوسهم وبلادهم من التبعية

للخارج؟ والجواب لدى مالك بن نبي أن الشعوب العربية تعاني علة مزدوجة. «فكلما شعرنا بداء العامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه عاملاً باطنياً يستجيب للعامل الخارجي ويحط من كرامتنا بأيدينا» (المرجع نفسه). وكداعية إسلامي، ركز في تحليله لقيام النهضة على العامل الديني في الدرجة الأولى، فرأى أن الشرط الأول لقيامها هو «مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني»، والثاني «إمكانية تطبيق المبدأ القرآني الآن». وأفرد صفحات عدة في دراساته لإبراز «أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة». وفيها تذكير بأهمية القيم الأخلاقية في بناء الحضارة وتطور الشعوب (المرجع نفسه).

بعض الملاحظات الختامية

أبدى مالك بن نبي اهتماماً بالغاً، ومنذ بدايات تكوينه الثقافي، بالنهضة اليابانية. فهي نهضة آسيوية في الدرجة الأولى، وخارج المركزية الأوروبية، لا بل متعارضة معها في كثير من السمات العامة والخاصة، وقد استفادت من علوم الغرب وتقنياته لتحصن نفسها من مخاطر غزو خارجي.

تنبه رواد النهضة اليابانية مبكراً إلى ضرورة الانفتاح التام على العلوم العصرية الغربية من دون عقد ومركبات نقص. إلا أنهم حذروا من مخاطر الاقتباس السهل للمقولات الجاهزة من الغرب خشية أن تدمر المجتمع الياباني من الداخل، فرفع الإمبراطور المتنور مايجي شعارين يتمم أحدهما الآخر، ويشكلان سمة بارزة في النهضة اليابانية. فخاطب اليابانيين بقوله: «الحقوا بالغرب وتجاوزوه». ثم أتبعه بشعار آخر: «التكنولوجيا غربية، أما الروح فيابانية».

هكذا ذهب اليابانيون إلى الغرب، كما يقول مالك بن نبي، بذهنية التلميذ الذي يريد الاستفادة القصوى من علومه العصرية وتكنولوجيته المتطورة، فأخذوا علومه، وحصنوا مجتمعهم، ونافسوا الغرب في كل المجالات بجودة عالية وتقنية متطورة جداً، وبنوا دولة عصرية تطورت بسرعة إلى دولة إمبريالية قوية هي الوحيدة في التاريخ الحديث والمعاصر لمنطقة جنوب وشرق آسيا بأكملها. وخلال أقل من ثلاثة عقود، باتت اليابان دولة قوية تخيف الغرب الاستعماري أكثر مما تخاف منه. ثم أنزلت خسائر كبيرة بجيوش الصين العام 1894، وروسيا العام 1905.

وبعدما خرجت منتصرة في الحرب العالمية الأولى، عملت على فرض سيطرتها على دول الجوار الآسيوية، فاحتلت مساحات جغرافية واسعة بلغت ما بين سبعة إلى ثمانية أضعاف مساحة اليابان وتعداد سكانها خلال سنوات 1931 - 1945. وقد هاجم جيشها الأسطول الأميركي في بيرل هاربر العام 1941، في إشارة واضحة إلى عزمها على إفراغ المنطقة بكاملها من الوجود الأجنبي، أوروبياً كان أم أميركياً، لكن الأميركيين دخلوا بقوة في حرب مدمرة ضد اليابان خلال أربع سنوات، وهدموا أكثر من 70 في المائة من مدن وقرى اليابان عبر غارات جوية، وقصف بحري وبري. وعندما رفض اليابانيون الاستسلام قذفها الأميركيون بقنابل نووية على هيروشيما وناغازاكي لإجبارها على الاستسلام والإعلان عن نهاية الحرب العالمية الثانية العام 1945. لذلك تبدلت صورة اليابان الزاهية لدى المفكرين العرب والمسلمين بعد تحولها إلى بلد مهزوم، خاضع للاحتلال الأميركي، ومحروم من التسلح. لكن صورة اليابان الأولى ما زالت تشد الكثيرين منهم. وما زال كثير من المثقفين العرب والمسلمين أسرى نهضة اليابان الأولى، ولم يظهروا الاهتمام الكافي بالنهضة الثانية. فعلى الرغم من قساوة السيطرة الأميركية ومصادرتها لقرارها السياسي، نجحت اليابان في تطوير العلوم العصرية، والتكنولوجيا، وبنت اقتصاداً مزدهراً.

ليس من شك في أن مالكاً بن نبي لم يسع إلى تقديم دراسات علمية موثقة عن اليابان، أو التعريف بتفاصيل لنهضتها، إلا أنه كان على قناعة تامة بأن تجربة اليابان تقدم أنموذجاً يحتذى للعرب والمسلمين. وقد دعا شعوب آسيا وإفريقيا إلى دراسة تلك النهضة لتعزيز قدراتهم على مواجهة دول الغرب، بجناحيه الأوروبي والأميركي، وثقافته المركزية التي تقلل من أهمية الثقافات الأخرى.

ختاماً، تعبر دراساته عن احترام عميق لنهضة اليابان، والاحتفاظ بصورتها الزاهية على رغم الهزيمة. فهي نهضة آسيوية ترتبط مع العرب بتاريخ مشترك، وتقدم لهم المثال والعون لقيام نهضة ناجحة. فقد تجاوزت اليابان مقولات المركزية الثقافية الأوروبية التي فرضت على العرب ولم يستطيعوا التخلص منها حتى الآن. وبعد أكثر من ثلاثين سنة على رحيله، ما زالت مقولات مالك بن نبي صالحة لاستنهاض العرب شرط أن يحرروا أنفسهم من سلبيات مرحلة «القابلية للاستعمار».

لقد تحرر العرب من بعض أشكال الاستعمار العسكري المباشر، لكن عليهم إثبات القدرة على التحرر من أشكاله الأخرى، وعدم القبول بالتبعية للعولمة الأميركية.